التصوف قديماً وحديثاً

(١)

التصوف فى الهند

(من كتاب تحت الطبع)

بقلم محرر المجلة

نزعة التصوف

الانسان بطبعه ميال إلى حب استطلاع كل مجهول ، والوقوف على حقيقة كل مستور . فيحاول النوب إلى معرفة الظواهر المحسوسة التى تحيط به ، والتعرف على السبل التى تبلغه أمنيته . وتحقق له هويته . وماهذه الهوية أو تلك الأمنية فى الحق سوى السعادة : سواء أكانت دنيوية أم أخروية ، فلكل وجهة هو موليها (٢) .

لكن ! ما هى الوسيلة الى تلك الغاية التى ينشدها كل كائن حى ؟ سؤال جد معقد حارت عقول البشر — منذ الأزل — فى تكييفه والاجابة عليه ، وعجز جبابرة العقول عن أن يميطوا ذلك اللثام الحائل بينها وبينهم ، فوقفوا حيارى دهشين مختلفين .

وعندى أن أسباب الخلاف فى هذا ترجع الى عدة أمور أهمها : اختلاف الناس فى عقولهم ومشاعرهم وحساسياتهم ، واختلاف الزمان والمكان وما اليهما من العوامل الطبيعية ، واختلاف البيئة والوراثة وما اليهما عن العوامل الاجتماعية .

ولسنا بصدد تعداد ما اختلف الناس عليه فى ماهية السعادة . لكننا بصدد أولئك الذين يرونها فى التقشف والزهد وإدامة التأملات والاستسلامات ، أو يتلمسونها فى إنكار الجسد والخروج عن الاندماج فى حسه ، وتحرير النفس منه بالحط من سلطانه واستثارته بالارهاق والتعذيب وما يشبه هذا من ضروب متعددة .

لكن ! من هم أصحاب النزعة فى الأصل ومن أية أمة هم ؟ هذا ما سنتكفل بالاجابة عنه .

البراهمية

أما من هم أصحاب هذا الرأى أو تلك النزعة ؟ ومن أية أمة هم ؟ فهم الهنود الأقدمون أتباع الفيدا . و بعبارة أخرى هم البراهمة الذين يرجع تاريخ مذهبهم الى ماقبل الميلاد بثمانية قرون . ومن

(١) راجع مقالنا فى هذا الموضوع ، نشر بجريدة « العلم » بتاريخ ٢٣ ابريل ١٩٢٩

(٢) راجع مقالنا فى هذا الموضوع بعنوان (فلسفة السعادة) نشر بجريدة « أبو الهول » م ١٩٢٢

تعاليمهم قولهم : إن الله هو الواحد الاول الحق ، والمسبب الأول للحق، القيوم بذاته، والموجود بنفسه، هو هذا الذى لا يمكن أن تصيبه الحواس المادية أو العقول البشرية ، هو المنزه عن كل ما هو منظور ، ذلك لأنه أزلى سرمدى وهو روح كل شىء . . . روح كل الكائنات التى لا يمكن لعقل ما أن يدركه على ما هو عليه، و إنما بالروح ندركه نتصل به، وبالروح فقط يحصل الامتزاج و يتم الاندماج وتكون الوحدة . وهنا ترفع عن الاعين غشاوات الباطل وتنكشف سجف الحجب . فعلى الذين يريدون الوصول الى هذا الفردوس المقدس أن يتخلصوا من المادة وأن يضحوا بعقولهم و يحتقروا أجسادهم و ينتزعوا الآفات من أنفسهم ، لتعطى لهم فرصة الشعور والعلم الباطنى بالروح الكبيرة . وهذه المعرفة هى التى « تربط نفس الانسان بالكائن الاعظم صاحب النفس الخالصة الحقة » .

ولكى نعطى القارىء فكرة وافية عن ذلك المذهب ننقل له قطعة مما جاء عن أحد كتبهم فى « صواى فيفيكانندا » وهذه هى القطعة بنصها وفصها عن (كتاب حرية الفكر) .

« كيف يبتئس ذلك الذى يرى وحدة الوجود وحدة الحياة ، وحدة كل شىء ؟ ألا إن هذا الانفصال بين الرجل وأخيه ، و بين الرجل والمرأة ، وبين الرجل والطفل ، وبين الأمة والامة، و بين الارض والقمر، و بين القمر والشمس : هذا الانفصال بين الذرة والذرة، هو علة كل الشقاء . وقد قالت الفيدانتا : إن هـذا الانفصال لا وجود له ولا حقيقة له، إنما هو يبدو على السطح فقط ، أما فى قرارة الاشياء فليس سوى الوحدة، و إذا أنت تغلغلت فى قرارة نفسك وجدت الوحدة بين الانسان والانسان، و بين المرأة والطفل ، و بين العالى والدون، و بين الغنى والفقير ، و بين الآلهة والناس، إنهم كلهم واحد . و إذا ما تعمقت ألفيت الوحدة أيضاً فى الحيوان ومن وصل إلى هنا فقد انقشعت عنه الغشاوة » .

« إذ كيف يغشى على بصيرته ؟ فانه يعرف حقيقة كل شىء وسر كل شىء ، وكيف ينالـه شقاء ؟ إذ ماذا يرغب وقد وصل إلى قرارة كل شىء حتى الله ؟ ذلك المركز . . . تلك الوحدة هذه هى النعمة الابدية والمعرفة الخالدة والوجود الدائم . ففى هذا المركز وفى هذه الحقيقة لا يمكن أن نحزن على أحد ولا أن نرثى لأحد » .

« وعند ما يرى المرء أنه هو والكائن الذى لا يتناهى واحد ، وعندما تنعدم هذه الانفصالات و يندغم الناس والملائكة والحيوان والنبات فى هذه . فعندئذ يزول كل خوف . إذ ماذا نخشى ومم نخاف ؟ هل فى قدرتى أن أقتل نفسى ؟ هل فى قدرتك أن تؤذى نفسك ؟ »

« هنا تزول جميع الاحزان . إذ ماذا يولد الأحزان ؟ فأنا الكائن الواحد وأنا الكائن

الوحيد فى الوجود . وهنا تزول جميع الاحساسات ، إذ من أحسد ؟ هل أحسد نفسى ؟ ليس فى الكون كله غيرى أنا . فلنقض إذن على هذا التفريق ... على تلك الخرافة التي تقول بتعدد الكائنات » اهـ

والخلاصة هى أن مذهب البراهمة قائم على وحدة الوجود : وهذا نفسه هو ماتجده عند أغلب المتصوفة المسلمين : وعلى رأسهم محيى الدين بن العربى الذى يقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى ... إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وهو نفسه القائل :

الرب حق ، والعبـــد حق ... ياليت شعرى من المكلف ؟
إن قلت عبد ، فذاك ميت ... أو قلت رب ، أنى يكلف ؟

وكذلك ابن سينا الذى يقول :

وتحسب أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الاكبر

وغيرها مما سنعرض لآرائهم عند الكلام عن التصوف فى الاسلام .

والآن فلنأخذ بيد القارىء إلى طائفة أخرى من طوائف الهنود الاقدمين أيضا ، وهم ممن ضربوا فى التصوف بسهم وافر ، وأولئك هم البوذية .

البوذية

مذهب البوذية هو بنفسه مذهب البراهمة مع تعديل ليس بالطفيف ، ذلك لأن الأولين يذهبون الى حد التأليه ، أما هؤلاء فيذهبون الى العدمية . وبيان ذلك يعرف مما يأتى — :

ولد لجوتاما زعيم إحدى القبائل الهندية ولد حوالى عام ٥٦٠ ق . م فى مملكة بنيال ، يقولون إن ولادته كانت مسبوقة بعدة معجزات ، ومصحوبة بعلامات أثبتت أنه البوذا الخامس والعشرين الذى جاء ليخلص العالم من آفات الشرور ، ويقولون : إنه بعد أن عاش عيشة ترف ، درس مذهب برهما فأثر فى نفسه . فالتجأ الى الغابات ست سنين يناضل نفسه ليكون فقيرا برهميا . لكنه لما لم يجد فى — إماتة المادة — (وهى اب تعاليم البراهمة) الضياء الكافى المقدس الذى يحلم به — جلس تحت شجرة كبيرة ، فى غسق الليل ، متأملا مستسلما . واستمر لبلة على تلك الحال ، حتى حلت فيه روح البوذا ، فقام من فوره ينشر تعاليمه التى تلخص فى السعى للوصول إلى

حالة (النيرفانا) أى الاندماج فى النفس الاولى ولا يتم هذا إلا بعد العودة للحياة مرات متعددة (أى التقمص) ولأجل الوصول إلى هذا الاندماج يجب إنكار الذات والتأمل والزهد فى الدنيا عنده أن « ١ » الرغبة غير المستكفية تؤلم « ٢ » والرغبة هى أصل الالم « ٣ » ولاستئصال الالم يجب نبذ الرغبة « ٤ » ولأجل منع الالم يجب اتباع الاوسط فى كل شىء .

أما نقطة الخلاف الجوهرية بين تعاليم البرهمية واليوذية ، فتنحصر فى أن الاخيرة لا تعترف بوجود حياة غير هذه الحياة ، و بعبارة أخرى لا تعترف بخلود النفس . ولو أنها تقول بالتقمص . فكل ما فى الامر هو أن الرغبة تنتقل فى الحياة الاخرى من شخص إلى آخر مثله ، إن كان سعيداً ، و إلا فمن إنسان الى حيوان أو جماد ، إن كان شقياً .

والآن نود ن نقف بالقارىء عند هذا الحد من شرح أهم المذاهب الهندية خوف الملالة والغموض ، ونختم هذا الفصل الصغير بذكر كتب الهند المقدسة لنثبت للقارىء أنها كتب صوفية محضة و إليك بيانها .

الكتب المقدسة عند كل الهنود الأقدمين وعند مائتى مليون منهم فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، هى أربعة كتب تجمعها كلمة (الفيدا) .

١ — الكتاب الاول يطلقون عليه كلمة — الرجفيدا — ومعناها كتاب الاناشيد ، وهى التى تتلى وتنشد وقت اجتماع حلقات الذكر التى يرددون فيها كلمة (أوم) ومعناها باللغة السنسكريتية القديمة (الله) وهذه الاناشيد التى تنشد تشبه ما يحصل عندنا فى حفلات الذكر من ترديد كلمة (الله) وتلاوة بعض المواويل .

٢ — الكتاب الثانى يطلقون عليه كلمة — الساما فيدا — ومعناها كتاب النغمات والتراتيل وهذه تتلى عند تقديم شراب (السوما) المقدس وتعاطيه للاخوان والاتباع المخلصين ، وهو يشبه ما يحصل عندنا فى تلاوة بعض التراتيل عند تقديم شراب القرفة لنفس الاتباع .

٣ — الكتاب الثالث يطلقون عليه كلمة — الياجورفيدا — أى كتاب القرابين ، وهى تتلى عند تقديم القرابين والنذور لمن بلغوا درجة « النيرفانا » أى درجة الكمال المطلق . وهذه تكاد تشبه بعض الأدعية التى تتلى عند تقديم مثل هذه القرابين أو النذور للأولياء الصالحين سواء أكانوا من الأحياء أم الاموات . وخصوصاً « مشايخ الطرق » .

٤ — الكتاب الرابع يطلقون عليه كلمة — الاتارفافيدا — أى كتاب الأوراد والتعازيم والكرامات . وهذه تشبه عندنا كتب الاوراد والتصوف والكشف .

وهناك عدة تذييلات ضربنا صفحا عن ذكرها ونقف بك عند هذا الحد ولعلنا نعود لتفصيل ما أجملناه ؟

عبد العزيز الاسلامبولى